إشهار الرؤوس المقطوعة

في ايام العباسيين

الأستاذ ميخائيل عواد

تمهيد:

في مقال سابق لنا ، ذكرنا أخبار « خزانة الرؤوس » في دار الخلافة العباسية ببغداد [1] ، وما ضمته رفوفها من رؤوس لعب أصحابها أدوارا خطيرة في ميادين السياسة والادارة والفكر. وها نحن أولاء ننتقل إلى بحث آخر ذي صلة بهذا الموضوع ، « وهو إشهار الرؤوس المقطوعة في أيام العباسيين » وذلك في مختلف البلدان الاسلامية ، فنقول :

أولاً – نصب الرؤوس في سامراء

١ – رأسا الخليفة المستعين بالله :

تنكر الأتراك للمستعين لمّا قتل بعض أعيانهم مثل : وَصيف وبُغَا ، ونفى باغر التركيّ الذي فتك بالمتوكل ، ولم يكن له مع وصيف وبغا أمر حتى قيل في ذلك :

خليفة في قفص بين وصيف وبُغَا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا.[2]

وانحلّ أمره بعد وقعات كثيرة ، فخلع نفسه وأُحدر إلى واسط ، فأقام بها تسعة أشهر محبوساً ، ثمّ رُدّ الى سامراء ولم يبلغها حتى حُزّ رأسُه ، قال المسعودي : « ولمّا كان في شهر رمضان من هذه السنة ، وهي سنة اثنتين وخمسين ومائتين ، بعث المعتز بالله سعيد بن صالح الحاجب لياتي المستعين ، وقد كان في جملة من حمله من واسط ؛ فلقيه سعيد وقد قرب من سامراء فقتله واحتزّ رأسه وحمله إلى المعتز بالله ، وترك جثته ملقاة على الطريق ، . . . . وذكر شاهك الخادم ، قال : كنت هديلاً للمستعين عند إشخاص المعتز له الى سامراء ونحن في عمّارية ، فلمّا وصل إلى القاطول تلقّاه جيش كثير ، فقال : ياشاهك انظر مَن رئيس القوم ؟ فإنْ كان سعيد الحاجب فقد هلكتُ. فلمّا عاينته قلتُ هو والله سعيد ، فقال إنّا لله وانا اليه راجعون! ذهبتْ والله نفسي [1] وجعل يبكي . فلما قرب سعيد منه جعل يقنعه بالسَّوط ثمّ أضجعه وقعد على صدره واحتزّ رأسه وحمله ...[2] »

قال ابن الاثير : « وحُمِل رأسه (أي رأس المستعين) إلى المعتز وهو يلعب بالشطرنج ، فقيل هذا رأس المخلوع . فقال ضعوه حتى أفرغ من الدست .. .[3] » .

وفي كتاب « الديارات » للشابشتي وصف مؤثر لهذا المشهد المحزن الذي حلّ برأس المستعين . قال : « وذكرَ أحمد ابن حمدون قال : بَنَى المعتز في الجَوْسَق في الصَّحن الكامل بيتاً قَدَّرَتْهُ له أمّه ومثلت حيطانه وسقوفه ، فكان أحسن بَيْتٍ رُئي . قال : فدعانا المعتز اليه فكُنّا في أحسن يوم رُئي سروراً . وخلف الستارة مُغَنّية تُغَنّي أحسن غناء ليس لي بها عَهْد . قال : فنحن في ذاك ، إذْ دَخل علينا خادم في يده طَبَق عليه مِكَبَّة ، فوضعه في وسط البيت ، وكان في يد المعتز قَدَحٌ فشربه وشربنا ، ثم قال للخادم : ارفع المِكَبَّة ، فرفعها ، فاذا رأس المستعين في الطَّبَق . فلما رأيته شَهِقْتُ وبكَيْتُ . فقال لي المعتز : يا ابن الفاعلة ، ماهذا ؟ كأنّك داخلَتْك له رِقّة . فثاب إليّ عقلي وتَماسَكتُ وقلتُ : ما كان لِرِقّة ، ولكني ذكرتُ الموتَ . فأمرَ الغُلام بردّ المِكَبَّة ورفع الطبق ، فرفعه . وكان المعتز داخلَتْه فترة ، وكذلك جميع مَنْ حضر وافترقنا عن الحال التي كُنّا عليها من السُّرور . قال : فنحن كذلك إذْ سمعنا وراء السِّتر ضجّة أفزعتنا ، فاذا امرأة تصيح ، وامرأة أخرى تَشْتم الصائحة ، والصائحة تقول : ياقوم أخذتموني غصباً ثمّ تجيئوني برأس مولاي

(١) الرسالة : (الأعداد ٤٨٩ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٩٤٥)

(٢) تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٢٣٨ ؛ طبع مصر)

(١) وفي رواية أخرى أنه قال : « قد جاء جزار بني العباس » المنتظم لأبي الفرج بن الجوزي (٥ : ٢٢ ؛ في ترجمة أحمد بن طولون)

(٢) مروج الذهب (٧ : ٣٦٦ — ٣٧١ ؛ طبع باريس) ؛ وانظر تاريخ الطبري (٣ : ١٦٧٠ — ١٦٧٥ ؛ طبعة دي غوه)

(٣) الكامل في التاريخ (٧ : ١١٦ ؛ طبعة تورنبرغ = ٧ : ٦١ ؛ بولاق)

فتضمونه بين يدىّ ! فسمعنا صوت العود قد ضرب بهر أنهما . قالَ : وكان الشاتم لها والضارب قَبيحَة [1] ، وكانت الجارية من جوارى المستعين . قال : فانصرفنا عن المجلس أقبح انصراف وقد تنغّص علينا ما كنا فيه ، ولم تمض إلا أيام يسيرة حتى وثب الأتراك على المعتز فقتلوه . ثم دُعِى بنا لننظر إليه فدخلنا عليه فى ذلك البيت ، فإذا هو ممدود فى وَسْطه مَيْتاً [2] »

٢ — رأسى صالح بن وصيف

روى قصته الطبرى فى حوادث سنة ٢٥٦هـ ، ودونك بعض ما قاله فى رواية مقتله : « ... وقيل إنه حُمِل على برذون صِنابى والعامة تعدو خلفه وخمسة من الخاصة يمنعون منه ، حتى انتهوا به إلى دار موسى بن بُغا ... فلما صاروا به إلى حد المنارة ضربه رجل من أصحاب مفلح ضربة من ورائه على عاتقه كاد يقدّه منها ، ثم احتزوا رأسه وتركوا جيفته هناك ، وصاروا به إلى دار المهتدى ، فوافوا بابَ قُبيل المغرب وهو فى بركة قباء رجل من غلمان مفلح يقطر دماً ، فوصلوا به إليه وقد قام لصلاة المغرب فلم يره ، فأخرجوه ليصلح ، فلما قضى المهتدى صلاته وخبروه أنهم قتلوا صالحاً وجاءوا برأسه ؛ لم يزدهم على أن قال واروه ، وأخذ فى تسبيحه ... فلما كان يوم الإثنين لسبع بقين من صفر حمل رأس صالح بن وصيف على قناة وطِيف به ونودى عليه : هذا جزاء من قتل مولاه . ونُصب بباب [3] العامة ساعة ، ثم نحى وفعل به ذلك ثلاثة أيام تتابعاً . وأخرج رأس بُغا الصغير [4] فى وقت صلب رأس صالح ، يوم الإثنين ؛ فدُفع إلى أهله ليدفنوه ... فقال السلولىّ لموسى إذ قتل صالح بن وصيف :

وصيفٌ بالكرخ ممثولٌ به وبُغا ... بالجسر محترق بالجمر والشرر

وصالح بن وصيف بعد منفرٌ
فى الحشر جيفته والروح فى سقر [1]

ثانياً — رؤوس جماعة من بنى أمية

بين يدينا أخبار رؤوس لقوم من بنى أمية ، قُطعت قُبيل ظهور دولة بنى العباس ؛ أو إبّان ظهورها ، ثم نُقل بعض هذه الرؤوس إلى العراق ، وكان من أشهرها :

١ — رأسى عبيد الله بن زياد

الوقعة التى قتل فيها ابن زياد مشهورة فى التاريخ . قال ابن عبد ربه : « ... ولما التقى عبيد الله بن زياد وابراهيم بن الأشتر بالزاب . قال : من هذا الذى يقاتلنى ؟ قيل له : ابراهيم بن الأشتر . قال : لقد تركته أمس صبياً يلعب بالحمام . قال : ولما قتل ابن زياد بعث المختار برأسه إلى على بن الحسين بالمدينة . قال الرسول : فقدمت به عليه انتصاف النهار وهو يتغدى . قال : فلما رآه قال سبحان الله ما اغتر بالدنيا إلا من ليس لله فى عنقه نعمة ، لقد أدخل رأس أبى عبد الله على ابن زياد وهو يتغدى . وقال يزيد ابن معن :

إن الذى عاش ختّاراً بذمته ... ومات عبداً قتيل الله بالزاب [2]

٢ — رأسى مروان الحمار :

وهو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم آخر خلفاء بنى أمية . وبقتله طويت صفحة بنى أمية من ديار المشرق . قال ابن الأثير فى رواية مصرعه : « وحمل رجل على مروان فطعنه وهو لا يعرفه ، وصاح صائح : صُرع أمير المؤمنين فابتدروه ، فسبق اليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمّان فاحتزّ رأسه فأخذه عامر فبعث به الى أبى عَوْن ، وبعثه أبو عَوْن الى صالح ، فلما وصل اليه أمر أن يقصّ لسانه ؛ فانقطع لسانه فأخذته هِرّة . فقال صالح : ماذا تُرينا الأيام من العجائب والعبر ، هذا لسان مروان قد أخذته هرّة . وقال شاعر :

(١) هى أم الخليفة المعتز بالله العباسى كانت رومية فائقة فى الجمال فسميت قبيحة من أسماء الأضداد . توفيت بسامراء فى سنة ٢٦٤ هـ

(٢) الديارات للشابشتى (مخطوط برلين ؛ الورقة ٧٣)

(٣) هو أحد أبواب مدينة سامراء ، له ذكر كثير فى التاريخ . راجع مثلا تاريخ الطبرى ٣ : ١٢٣٠ ، ١٣١٨ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٥ ، ١٥٢٢ ، ١٦٦٢ ، ١٧٢٣ ، ١٨١١ ، ١٨٢١ ، ١٨٥٩ ، ١٨٧٤ ؛

(٤) قتل فى سنة ٢٥٤هـ ، وحمل رأسه إلى المعتز ، ونصب فى سامراء ثم فى بغداد ، وأحرقت المذبة جثته انظر الكامل لابن الأثير ٧ : ١٢٦ ؛ ليدن = ٧ : ٦٦ بولاق .

(١) تاريخ الطبرى ٣ : ١٨١٠ — ١٨١١ ، وانظر الكامل لابن الأثير ٣ : ١٥٥ ليدن = ٧ : ٨٠ ؛ بولاق .

(٢) العقد الفريد (٣ : ١٥١ — ١٥٢ طبعة القاهرة سنة ١٩١٣)